مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية

اسم المقال: أبو تمام بين ابن المعتز وأبي بكر الصولي
اسم الكاتب: عمر حسن العامري، محمد عيسى الحوراني
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/index.php/library/8972
تاريخ الاسترداد: 2026/05/12 18:14 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

جامعة الشارقة
ملتقى الحضارات

مجلة جامعة الشارقة

دورية علمية محكمة

للعلوم الإنسانية والاجتماعية

المجلد 15، العدد 2
ربيع الثاني 1440 هـ / ديسمبر 2018 م

الترقيم الدولي المعياري للدوريات 1996-2339

أبو تمّام بين ابن المعتز وأبي بكر الصّولي

عمر حسن العامري

كلية القانون الكويتية العالمية

مدينة الكويت - الكويت

محمد عيسى الحوراني

كلية التربية والعلوم الإنسانية والاجتماعية - جامعة العين للعلوم والتكنولوجيا

أبوظبي - الإمارات العربية المتحدة

تاريخ الاستلام: 2017-01-15 **تاريخ القبول: 2017-03-06**

ملخص البحث:

يعمد هذا البحث إلى تقديم صورة الشاعر أبي تمام في نظر ناقدَين كبيرَين هما ابن المعتز وأبو بكر الصوليّ. فقد شكّل أبو تمام علامة بارزة في مسيرة أدبنا العربي القديم، بلغت ذروتها في القرنين الثالث والرابع الهجريين. وهو شاعر إشكاليّ، أسهم أيّما إسهام في تنشيط الحراك النقدي، بانتهاجه طريقة التجديد والبديع والخروج (التجديد) على عمود الشعر العربي، الذي اتخذه النقاد العرب القدامى معيارًا يقيسون به جيّد الشعر من رديئه، فكلما كان نصيب الشاعر منه أكثر، والتزامه به أشدّ، علا شأنه، وارتفع شأوه، وتبوأ عندهم منزلة فضلى.

الكلمات الدالة: أبو تمام، مذهبه، ابن المعتز، الصولي.

□□□□□□ □□□□□□□□□ 15-2.indd 202 2/12/19 1:25 PM

مقدمة:

لما كان غرض البحث هو الوقوف على تقديم صورة الشاعر أبي تمام في نظر ابن المعتز وأبي بكر الصولي فقد انتظم في مقدمة وتمهيد وثلاثة محاور. ألمعنا في التمهيد لحياة الرجل وشعره. ثم جاءت المحاور الثلاثة على النحو الآتي:

المحور الأول: موقف عبد الله بن المعتز من أبي تمام، ممثلاً بموقفه من السرقات، ومن البديع، ومن قضية اللفظ والمعنى، ومن ابتداءاته. وتناول هذا المحور، كذلك، الحديث عن تطور آراء ابن المعتز النقدية بأبي تمام، وآراء بعض من حاولوا تعليل هذا التطور الذي بدا وكأنه تضارب.

أما المحور الثاني بعنوان «موقف الصولي من أبي تمام»، فتحدث فيه الباحثان عن غير قضية أهمّها: موقف الصّولي من السرقات، وموقفه من قضية اللفظ والمعنى، وفصله بين الشعر والدين، ثم تعصّبه لأبي تمام، ومنهجه في الرّد على العائبين عليه.

وجاء المحور الأخير ليلخّص أهم النتائج التي أسفر عنها البحث، من خلال النظر في منهج الرجلين في معالجة شعر أبي تمام والحكم عليه.

وبعد، فقد بذلنا في هذا البحث قصارى الجهد ومبلغ الطاقة لتجلية صورة أبي تمام كما رآها كل من ابن المعتز وأبي بكر الصّولي، فإن وُفّقنا إلى ذلك فبفضل الله ومنّه، وإن قصّرنا فيكفينا أجر الاجتهاد، وفضل إطلاق العنان لبعض الأسئلة والقضايا الكُبَر، التي قد تجد من يأخذ على عاتقه النهوض بها، لكونها تحتاج إلى مزيد وقت وعميق اطلاع وطول نظر للوقوف على كنهها وحقيقتها.

تمهيد:

أبو تمام: إطلالة على حياته ومذهبه الشعري

هو حبيب بن أوس بن الحارس، ولد بقرية جاسم، وهي إحدى قرى الجيدور، من أعمال دمشق، سنة تسعين ومائة من الهجرة (الآمدي، د.ت). يروى أن أباه كان نصرانيًّا يدعى «تدوس» فلمّا أسلم حرّفه أبو تمام إلى «أوس» وانتسب في طيء (الصولي، 1937).

كان أبو تمام حلو الكلام، غير أنّ في لسانه حُبسة. وكان فطنًا شديد الفطنة، قوي العارضة[1]، حاضر البديهة. وقد واتتْه هذه الخِلال ومكّنته من الغوص في المعاني؛ فكان ما يزال يجدّ في أثرها حتى يصل إلى ما يعسر على غيره متناوله (الآمدي، د.ت).

(1) إنه لشديد العارضةِ أي شدِيد الناحيةِ ذو جَلَدٍ وصَرامةٍ. (انظر: لسان العرب, مادة «عرض»).

15-2.indd 203 2/12/19 1:25 PM

توفي أبو تمام بالموصل سنة إحدى وثلاثين ومائتين (الآمدي،د.ت)، وقيل سنة اثنتين وثلاثين ومائتين (الصولي، 1937) .

مذهبه الشعري:

كان لأبي تمام مذهب في المطابق والمجانس اشتهر به، ونُسب إليه. وهذا المذهب لم يُنسب إليه لأنّه اخترعه؛ فقد طرقه الشعراءُ من قبله، وقالوا منه، ولكنّه نسب إليه وعُرف هو به لأنه فضَلَ الشعراءَ جميعًا فيه، وأكثر منه وسلك جميع شُعبه، بل إنّه كان مَثار ما دار حوله من الجدل، ومن جهته انطلقت ألسنة الناقدين عليه، بحقّ أحيانًا، وبغير حقّ أحيانًا أخرى؛ ذلك بأنه بالغ في سلوك هذه السبيل وأولع بها، حتى ليندر أنْ يخلوَ بيتٌ له منه، فأوقعه هذا الولوع في التّعسف وارتكاب متن الشّطط، ولكن الذي لا شك فيه أنّ الجيد من شعره كثير، وأنه لا يلحق غباره في جيده (الآمدي، د.ت) .

ويلخّص الآمدي مذهبَ أبي تمّام الشعري في قوله إنه يسرف في طلب الطباق والتجنيس والاستعارات، ويبالغ في التماس هذه الأبواب وتوشيح شعره بها، حتى صار كثيرٌ مما أتى [به] من المعاني لا يُعرف ولا يُعلم غرضه فيها إلا مع الكدّ والفكر وطول التأمل، ومنه ما لا يعرف معناه إلا بالظن والحدس، ولو كان أخذ عفو هذه الأشياء ولم يوغل فيها، ولم يجاذب الألفاظ والمعاني مجاذبة ويقتسرها مكارهة، وتناول ما يسمح به خاطره وهو بجمامه غير متعب ولا مكدود، وأورد من الاستعارات ما قرب في حسن، ولم يفحش، واقتصر من القول على ما كان محذوًّا حذْوَ الشعراء المحسنين؛ لَسَلِم من هذه الأشياء التي تُهَجِّن الشعر وتُذهب ماءه ورونقه، ولعل ذلك أن يكون ثلث شعره أو أكثر منه ـ لظننته كان يتقدم عند أهل العلم بالشعر أكثر الشعراء المتأخرين، وكان قليلُه حينئذٍ يقوم مقام كثير غيره؛ لِما فيه من لطيف المعاني ومستغرَب الألفاظ، ولكنّه شَرِهَ إلى إيراد كلّ ما جاش به خاطره ولجْلجَهُ فكرُه، فخلط الجيّد بالرديء، والعين النادر بالرّذل الساقط، والصواب بالخطأ. وأفرط المتعصبون له في تفضيله، وقدموه على من هو فوقه من أجل جيده، وسامحوه في رديئه، وتجاوزوا له عن أخطائه وتأوّلوا له التأوّل البعيد فيه، وقابل المنحرفون عنه إفراطاً [بإفراط] فبخسوه حقه، واطّرحوا إحسانه، ونعَوا سيئاته، وقدّموا عليه من هو دونه. وتجاوز ذلك بعضُهم إلى القدْح في الجيد من شعره، وطعن فيما لا يطعن عليه [فيه]، واحتج بما لا تقوم حجة به (الآمدي، د.ت،1، 125) .

ويكاد يجمع النقاد على اقتدار أبي تمام على الغوص في المعاني البديعة والنادرة، كيف لا وهو المأثور عنه الذكاء والفطنة وحضور البديهة وسعة العلم وتنوع الثقافة، كل ذلك أسهم في تشكيل «إطاره الشعري» (بكار، 2007، 27) الذي صادف موهبة متوقدة وروحًا مستشرفة ونفسًا وثّابة أنتجت شاعرًا فذًّا ملأ الدنيا بذكره، وشغلَها بفنّه.

15-2.indd 204 2/12/19 1:25 PM

وأهمّ ما يميز شعر أبي تمام عمق المعاني، وإنّ البديع في شعره غالبًا ما يأتي موظَّفًا توظيفًا صحيحًا يضيف إلى المعنى ويُسهم في إثرائه وتوهّجه ورونقه. وهذا الاستخدام الذي ينمّ على حِذقه وجرأته كان أحد أهمّ الأسباب التي أثارت حفيظة كثيرين من المتعصّبين عليه والمنادين بإسقاط شعره (المحارب، 1992).

يزخر شعر أبي تمام بالإشارات المختلفة إلى مصادرِ معانيه التي توزّعت بين القرآن الكريم والتاريخ والرواية والفلسفة والعلوم وغيرها من ضروب العلم والفن والأدب التي أخذ من كل منها بطرف.

وقد عُني أبو تمام، كذلك، بالطباق عناية فائقة وشغل مساحةً واسعة من شعره. وتعد ظاهرة التّضاد في شعره من أكثر الظواهر بروزا، فقد استخدم التناقض بين المعاني لاجتراح حالة من الصراع في الذهن تؤدي إلى المعاني المطلوبة، وقد سماها أبو تمام «بنوافر الأضداد» (المحارب، 1992، 119). يقول مخاطبًا أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد:

قد بَثَثْتُمْ غَرْسَ المَودَّة والشَّحْـ ـنَاءِ في قَلْب كل قَارٍ وَبـادِ

أبغَضُوا عزَّكُمْ ووَدُّوا نداكُمْ فقروكُمْ من بغضةٍ ووِدادِ

لاعَدِمْتُمْ غَريب مَجْدٍ رَبَقْتُمْ في عُرَاهُ نَوافرَ الأَضْدَاد

ولعل مسألة الغموض التي شاعت في شعر أبي تمام كانت من المسائل التي أثارت جدلًا كبيرًا حول مذهبه الشعري. فالناقد القديم كان نزّاعا إلى التكشّف والوضوح. وقد حاول بعض النقاد ربط هذا الوضوح بوضوح الحياة التي كان يعيشها الشاعر العربي القديم، لهذا كان الشعر يصدر عن أفكار ومعان جاهزة... كان بتعبير آخر، ينقل معاني موجودة قبله: يفسرها، وينوع عليها. وكان القارئ، تبعا لذلك يرى في نتاجه ما قد عرفه، سابقًا، وألفه. وكان نقده ينطلق من هذا السؤال: إلى أي حدّ تتطابق معاني هذا الشاعر مع المعاني والأشياء التي أعرفها؟ (أدونيس، 1983) لذا كانت معاني أبي تمام مستهجنة لمخالفتها سَنن الشعراء السابقين. وهذا حال كل جديد لا في الأدب حسب، بل في الحياة أيضًا.

لهذا كله، ولأشياء أخرى، انقسم الناس إزاء أبي تمام قسمين كبيرين: قسم متعصّب له، يرى تجديده إبداعًا، وخروجه على عمود الشعر توسُّعا وجِدّة، وآخر متعصب عليه، يرى تجديده ابتداعًا وخروجَه انتهاكًا لمعايير الأصالة، وهؤلاء تبنّوا الحديث عن عيوبه التي كانت تدور على «سرقته لبعض المعاني، وتعسّفه للاستعارة، وبعض وجوه البديع الأخرى، وفي الابتداءات البشعة، وفي استعماله لألفاظ وحشية غريبة، وفي استغلاق بعض معانيه» (عباس، 1983، 147 - 148).

موقف عبدالله بن المعتز (247 - 296هـ) من أبي تمام:

تمثّلت أهمّيّة ابن المعتز في دراسة الشعر المحدث من خلال مؤلفَيْه: «طبقات الشعراء» و رسالته «في محاسن شعر أبي تمام ومساوئه» إلى جانب كتابه «البديع» الذي رسم به نهجًا جديدًا لتذوّق شعر المحدثين.

ويمثّل ابن المعتز ذهنيّة الأدباء النقاد في القرن الثالث الهجريّ، وهي «طائفة درست الأدب قديمه وحديثه، وأخذت القديم عن اللغويين والنحويين، ولكنها عُنيت بالمُحدث أشدّ من عناية هؤلاء وحفِلت به، وأقبلت على تحليل عناصره، وما يجِدُّ فيه عهدًا بعد عهد، وما بينه وبين المذهب القديم من تفاوت، تلك هي طائفة الشعراء والأدباء وعلماء الأدب. ومن أظهر الأمثلة لهؤلاء عبد الله بن المعتز، فقد كان كثير السماع، غزير الرواية، يلقى العلماء من النحويين والإخباريين، ويقصد فصحاء الأعراب ويأخذ عنهم، ولكنه كان مع ذلك بارعًا في الأدب، حسن الشعر، مهتمًّا بنقد المحدثين» (إبراهيم، د.ت، 112) ، حتى عدّه ابن رشيق القيرواني «أنقد النقاد» (ابن رشيق،1994،1 - 462).

وتعد رسالة ابن المعتز في محاسن شعر أبي تمام ومساوئه أوّل أثر نقدي تناول شعر أبي تمام، ولعلها السبب وراء انبراء أبي بكر الصولي (335هـ) لدفاعه عن أبي تمام من خلال كتابه «أخبار أبي تمام». ويرى أحمد كمال زكي أن الآمدي استند إلى هذه الرسالة في نقد شعر أبي تمام، كما استند إليها الجرجاني في وساطته، ويُمكن أن تكون بعدُ أساسَ جميع الموازنات التي عُقدت بين أبي تمام والبحتري(زكي،د.ت).

أولًا: موقفه من سرقات أبي تمام:

احتلت قضية السرقات مساحة واسعة من النقد العربي القديم واشتغل نقاد كثيرون في درسها وتقصّيها عند الشعراء حتى ألّفوا فيها كتبًا وصنفوا فيها مصنفاتٍ أُفردت للحديث عن هذه القضية. ولم ينجُ ابن المعتز من هذه العدوى، فقد خاض في الكلام على سرقات أبي تمام، فقال: «وللطائي سرقات كثيرة أحسن في بعضها وأخطأ في بعضها. ولمّا نظرت في الكتاب الذي ألفه في اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر إحسان الشعراء. وإنما سرق بعض ذلك فطوى ذكره، وجعل بعضه عُدّة يرجع إليها في وقت حاجته... ولا يعذر الشاعر في سرقته حتى يزيد في إضاءة المعنى أو يأتي بأجزل من الكلام الأول، أو يسنح له بذلك معنى بفضح به ما تقدمه ولا يفتضح به وينظر إلى ما قصده نظر مستغن عنه ولا فقير إليه» (المرزباني، 1343هـ، 312)

يبدو رأي ابن المعتز، في شأن السرقات، منسجمًا إلى حدّ بعيد مع آراء كثيرين من معاصريه النقاد، لكن اللافت أنه يتحدث عن نوعين من السرقات عند أبي تمام: نوع

□□□□□□ □□□□□□□□□ 15-2.indd 206 2/12/19 1:25 PM

حسن وآخر قبيح، وكأن «السرقة» عنده، وربما عند آخرين من معاصريه، ليست منقصة بحدّ ذاتها، إلا إذا كانت قبيحة، يجيء فيها المعنى الجديد إما مقصِّرا عن المعنى القديم فيمسخه، وإما مكافئًا له فلا يزيد عليه شيئا فيذهب بريقه وروعته لكثرة تناوله فيصير مستهلكًا مبتذلًا.

ورأي ابن المعتز هذا يبدو منطقيًّا وصحيحًا إلى حدّ بعيد، ذلك أن المعاني ليست حكرًا على أحد، فهي متاحة للجميع، وإنما تظهر البراعة في تناولها تأليفًا وصياغة ونظمًا وتصويرًا وتخيُّر ألفاظٍ.

ويضمّن ابنُ المعتز كلامَه السابق على سرقات أبي تمام تُهَمةً خطيرة، مفادها أن أبا تمام استثنى كثيرًا من عيون شعر مَن اختار لهم في حماسته، كي لا يُفتضح أمرُه وتنكشف سرقاته منهم. إن مثل هذا الرأي، في ظني، ينبغي ألا يُطلق جزافًا، بل يحتاج إلى مزيد من البحث والتقصي وإعادة النظر، لأنه إذا كان الأمر كما يقول ابن المعتز فكيف نفسّر، إذًا، التباين بين شعر أبي تمام ومختارته؟ هذا التباين الذي فسّره المرزوقي بقوله: إن أبا تمام «كان يختار ما يختار لجودته» (المرزوقي،1991،13:1) وكان «يقول ما يقول من الشعر بشهوته» (المرزوقي،1991، 14:1) وشتان بين القوتين.

ويمكن رد ما ذهب إليه ابن المعتز في هذا الشأن من جانب آخر، هو أنه يتعذّر على النقاد المفاضلة الدقيقة بين قصائد لشاعر أو أكثر، بسبب تعذر إيجاد معايير قياسية ثابتة ومتماثلة يمكن اتباعها في هذا الشأن. فاختلاف الأذواق أمر بديهي. وينبغي ألا يطالب ابن المعتز أبا تمام ليكون مماثلًا له في الذوق والاختيار، فيستحسن ما يستحنه هو، ويستقبح ما يستقبحه.

ولو رجعنا إلى قصة تأليف أبي تمام حماسته[1] لعثرنا على دليل آخر يُضعِف ما ذهب إليه ابن المعتز، فأبو تمام- كما تقول القصة- ترك مختاراته عند بني سليم زمنا طويلًا، وما أخرجوها إلا بعد أن ساءت أحوالهم، فذاع خبرها واشتهرت منذئذٍ.

ومهما يكن من أمر فإن مسألة السرقات التي استغرقت حقبة طويلة من تاريخ النقد العربي القديم طالت معظم الشعراء، وليت نقادنا وجّهوا جهودهم التي أنفقوها في هذا

(1) كان الشاعر أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، في رحلة إلى خراسان، وبينما هو في طريق عودته إلى بغداد، دخل مدينة همذان فاستضافه أبو الوفا ابن سلمة ثم نزل ثلج كثير وساءت أحوال الطقس، فاضطر أبو تمام للبقاء بحيث كان. وأراد أبو الوفا ابن سلمة أن يخفف عنه، فأمدَّه بكل كتب الأدب التي في خزانته، فقضى أبو تمام وقته في عمل مختارات من الشعر العربي، منها كتاب الحماسة وكتاب الوحشيات وظلت هذه المختارات زمناً طويلاً في حوزة آل سلمة حتى تدهورت أحوالهم واضطروا إلى إخراج هذه المختارات، فأقبل الأدباء عليها، وذاع أمرها واشتهرت من يومها. (انظر: شرح ديوان الحماسة, 1: 8).

15-2.indd 207 2/12/19 1:25 PM

البـاب لخدمـة النقـد الأدبـي فـي نـواحٍ أخـرى.

ثانيًا: موقفه من «بديع» أبي تمام:

شـكل أبـو تمـام «مشـكلة فنيـة» لدى ابن المعتز كانت سـببًا من الأسـباب التي دعـت هذا الآخِر لتأليـف كتـاب «البديـع» ليـدلّ علـى أنّ هـذا الفـن موجود عنـد العرب وفي القـرآن الكريـم والحديث وكلام الصحابـة، ولـم ينـل المحدثـون قصـب السـبق فيـه (عبـاس، 1983) ، «غيـر أن حبيـب ابـن أوس شُـغف بـه حتـى غلـب عليـه، وتفـرّع فيـه، وأكثـر منـه، فأحسـن فـي بعـض ذلـك وأسـاء فـي بعـض، وتلـك عقبـى الإفـراط، وثمرة الإسـراف» (ابـن المعتز،كتـاب البديـع 1،1979).

وأشـار ابـن المعتـز إلـى اشـتهار أبـي تمـام بالبديـع ، وإكثـاره منـه فـي شـعره، ولـم يأخـذ عليـه اسـتخدامه البديـع مطلقًـا، ولكنـه استحسـن بعضـه ولـم يستحسـن بعضـه الآخـر. وأورد ابـن المعتـز فـي «البديـع» شـواهد كثيـرة تمثّـل الجانبيـن: الحسـن والقبيـح. وتوزعـت هـذه الشـواهد علـى أصنـاف البديـع المختلفـة: الاسـتعارة والتجنيـس وردّ أعجـاز الـكلام علـى مـا تقدّمهـا، والمطابقـة وغيرهـا.

ومن الاستعارات التي استحسنها قول أبي تمّام (ابن المعتز،كتاب البديع 21،1979):

مَطَرٌ يَذُوبُ الصّحْوُ منه وبَعْدَه صَحْوٌ يَكادُ مِنَ النضارة يُمْطِرُ

وقوله(ابن المعتز، كتاب البديع،1979، 22):

أمطرْتَهم عزماتٍ لو رميتَ بها يومَ الكريهةِ ركنَ الدِّهر لانْهـدَما

حتى انتهكْتَ بحدّ السيفِ هامتَهم جزاءَ ما انتهكوا من قَبلك الحُرَما

وأورد ابـن المعتـز كذلـك شـواهد علـى الاسـتعارة الرديئـة منهـا (ابـن المعتز،كتـاب البديـع، 1979، 24):

فضربت الشتاء في أخدعيه ضربـــة غادرتْه عَودا رَكوبا

ومما استتحسنه في باب التجنيس، قول أبي تمام (ابن المعتز،كتاب البديع، 1،1979):

رَاحَتْ لأرْبُعِكِ الرُّياح مَرِيضَةً وَأصَابَ مَغنَاكِ الغَمَامُ الصّيِّـب

ومن الرديء قوله (نفسه، 35):

ذهبَتْ بمذهبه السماحةُ فالتوتْ فيه الظنونُ أمُذهِبٌ أم مَذهـبُ

□□□□□□ □□□□□□□□□ 15-2.indd 208 2/12/19 1:25 PM

ومما استملحه في باب المطابقة قول أبي تمام (نفسه، 39):

إذا ذاقها وهْي الحياةُ رأيته يقطب تقطيب المقدَّم للقتـــلِ

وأخذ عليه في هذا الباب قوله (نفسه،47):

فيا ثلَج الفؤاد وكان رضفًا ويا شِبَعي برؤيته وريّي

ويمضي ابن المعتز على هذه الوتيرة في كتابه «البديع»، يورد أقسامه ويأتي بشواهد على حسنه وقبيحه دون أن يعلل لمَ استملح هذا، أو لمَ استقبح ذاك. على غير ما نجد في الرسالة التي أفردها لتناول شعر أبي تمام حسنه وسيئه، كما يقول.

إضافة إلى ما سبق فقد استشهد ابن المعتز في كتابه البديع بشعر أبي تمام على أغراض بلاغية أخرى كالمذهب الكلامي والالتفات وحسن الخروج إلا أنه في جميع هذه الأغراض يسير على الطريقة التي سار عليها في بقية فصول الكتاب من حيث عدمُ تقديم التعليلات والأسباب، سواء في ما استحسنه أم في ما استقبحه، ولعلّ السبب وراء ذلك هو أنه لم ينوِ من تأليفه هذا الكتاب معالجة النصوص الشعرية معالجة نقديّة بقدر ما أراد إثبات ريادة الأقدمين وأسبقيتهم في استخدام البديع. فالبديع قد وُجد في القرآن الكريم وكلام الرسول- صلى الله عليه وسلم- وكلام الصحابة وأشعار الجاهليين وفي غير ذلك.

ومهما يكن من أمر فإنه يُحسب لابن المعتز وعيه لما طرأ من مستجدّات على الحركة الأدبية في عصره ولا سيما حركة الشعر، فحاول البحثَ في هذا الطارئ من خلال شعر أبي تمام. وعلى ما في محاولته من قصور في الإحاطة بعالم أبي تمام الشعري وعلى ما فيها من أحكام نقدية لا تستند إلى معايير موضوعية بل إلى الذوق الشخصي فإنها محاولة تحسب للرجل، فقصوره مغتفر إذ إن حركة النقد الأدبي لم تكن قد استوت على سوقها آنذاك ولم تتخذ منهجًا متكاملاً وواضحًا. (كساب، 1995)

ثالثًا: موقفه من اللفظ والمعنى عند أبي تمام:

عاب ابن المعتز أبا تمام لاستعماله الألفاظ الغليظة والغريبة التي لا تتفق مع ذوق العصر الذي عاش فيه، لافتًا إلى ضرورة مراعاة البيئة التي عاش فيها الشاعر، فلا يخلط الكلمات المستوحاة من البادية والصحراء بالكلمات الحضارية، لأن ذلك سينجم عنه تفاوت في الألفاظ يؤدي إلى الخروج عن مبدأ التناسب والانسجام.

فابن المعتز لا يعيب أبا تمام لمجرّد استخدامه تلك الكلمات من حيث كونُها مفرداتٍ لغويةً صالحة للاستعمال أم لا، وإنما يعيب عليه غرابتها وعدمَ انسجامها مع ما يجاورها

15-2.indd 209 2/12/19 1:25 PM

مـن ألفـاظ أخـرى. وكأنّ ابـن المعتـز يلتفـت مـن خـلال هـذه الإلماعـات إلـى ضـرورة تحقـق الوحـدة النفسـية والانطباعيّـة للنـص، ذلـك أن لـكل كلمـة تداعياتهـا النفسـية والانطباعيـة التـي ينبغـي لهـا أن تصـب فـي بوتقـة واحـدة، تشـكل مقولـة النـص الكبـرى. يتضـح ذلـك مـن خـلال قولـه فـي سـياق نقـده بعـض أبيـات لأبـي تمـام لاشـتمالها علـى ألفـاظ غريبـة وغيـر مألوفـة، يقـول: «ولـم نعـب مـن هـذه الألفـاظ شـيئًا، غيـر أنهـا مـن الغريـب المصـدود عنـه، و ليس يحسـن مـن المحدثيـن اسـتعمالها؛ لأنهـا لا تجـاور أمثالهـا، ولا تتبـع أشـكالها؛ فكأنهـا تشـكو الغُربـة فـى كلامهـم» (المرزباني1343هـ،311).

ويـورد ابـن المعتـز بعضًـا مـن الشـواهد الدّالّـة علـى اسـتخدام أبـي تمـام للألفـاظ الغريبـة وغيـر المألوفـة منهـا قولـه (نفسـه، 310):

تقرو بأسفله ربولا غضّة وتقيل أعلاه كناسًا فَوْلفـــــــــا[1]

وقوله (نفسه’310):

إذا مشى يمشي الدفقّي أو سرى وصل السّرى أو سار سار وجيفا[2]

أمـا مـن حيـث المعانـي، فقـد كان أبـو تمـام يأتـي بهـا مسـتغلقة، أحيانًـا. ويـورد شـاهدًا علـى ذلـك قولـه (نفسـه،313):

لقد وهب الإمامُ المـــــــالَ حتى لقد خفنا بأن يهبَ الخلافــة

به عاش السماح، وكان دهـــــرًا مع الأموات ميْتا في لِفافَه

رابعًا: موقفه من ابتداءات أبي تمام:

اهتـم القدمـاء بمطالـع قصائدهـم إذ إنهـا مثّلـت الإطلالـة الأولـى علـى المتلقـي الـذي ينتظـر منهـا أن تنقـل إليـه إحساسًـا معينًـا مشـفوعًا بالنشـوة والمتعـة، فقـد عـاب ابـن المعتـز علـى أبـي تمـام بعـض ابتداءاتـه التـي ارتـآى أنهـا لا تناسـب المقـام الـذي قيلـت فيـه، ولا المناسـبة التـي نظمـت القصيـدة مـن أجلهـا. ولعـلّ ذلـك كائـن بسـبب تقديـم أبـي تمـام المحسّـنات البديعيـة، أحيانًـا، علـى المعانـى فتأتـي هـذه الأخيـرة ضعيفـةً مـزورّة عـن مكانهـا. مـن ذلـك قولـه:

(1) يقال الإنسان يقرو الأرض، إذا سار فيها ينظر حالها وأمرها. و الرّبول: جمع ربل، و هو نبات يصيبه برد الليل ونداه فينبت بالمطر. والكناس: مولج للوحش من البقر والظباء تستظل. (انظر: الموشح, ص310).

(2) الدّفقّى: مشية سريعة. القاعصاء: جحر اليربوع الأول الذى يدخل فيه، والنافقاء: موضع يرقّقه من جحره فإذا أتى من قبل القاعصاء ضرب النافقاء ففتحه.

□□□□□□ □□□□□□□□□ 15-2.indd 210 2/12/19 1:25 PM

خشُنت عليه أخت بني خُشينٍ...

فيقول معلِّقًا على هذا: «وهذا الكلام لا يشبه خِطاب النساء في مغازلتهن، وإنما أوقعه في ذلك محبته للتجنيس، وهو بهجاء النساء أوْلى» (المرزباني1343هـ،310) .

خامسًا: تضارب آرائه النقدية بأبي تمام:

نلحظ في نقد ابن المعتز شعر أبي تمام لهجتين متباينتين، إحداهما تبدو موضوعية علمية هادئة، مُجامِلة أحيانا، تتجلى في كتابيه «البديع» و«طبقات الشعراء»، وأخرى متحامِلة جلفة فظّة تعسّفيّة تتضح في رسالته «في محاسن أبي تمام ومساوئه».

ففي الرسالة، التي لم يصل إلينا منها سوى أجزاء مبثوثة في بعض كتب الأدب والنقد القديمَين(المرزباني1343هـ) تتجلى مقدرة ابن المعتز النقدية، حيث يعلل ويناقش مبتعدًا، ما أمكن، عن الأحكام العامة. ومما جاء في هذه الرسالة قوله: «سهّل الله عليكم سبيل الطلب، ووقاكم مكاره الزلل فيما رأيت من تقديم بعضكم الطائي على غيره من الشعراء أمرًا ظاهرًا، وهو أوكد أسباب تأخير بعضكم إيّاه عن منزلته في الشعر، لما يدعو إلى اللجاج. فأما قولي فيه فإنه بلغ غايات الإساءة والإحسان، فكان شعره قوله:

إن كان وجهُك لي تترى محاسنه فإن فعلك بي تترى مساويه

وقد جمعنا محاسن شعره ومساويه في رسالتنا هذه، فرجونا بذلك الابتداع المسهب في امتداحه، وردّ الراغب عنه إلى إنصاف، واختصرنا الكلام إيثارًا لقصد ما نزعنا إليه- وتوفيقًا لإطالة ما يكتفى بالإيجاز فيه...» (نفسه،307) .

ويبدو لنا من خلال عنوان الرسالة أن ابن المعتز لا يبتغي إلا الإنصاف والعدل والموضوعية في إيراد محاسن شعر إبي تمام ومساوئه، ويصرّح بأن أبا تمام بلغ الغاية في المحاسن كما بلغها في المساوئ، وأورد شواهد كثيرة تبين معايب الرجل وإخفاقاته في «صياغة المعنى أو ابتداع الطباق أو بلوغ الهدف الذي قصده. وأتبع ملاحظات هي في جملتها شديدة القسوة مع أنها خالية من التفسير والتحليل والتعليل» (كساب،1995، 59)

إن هذا التباين الواضح في آراء ابن المعتز في أبي تمام وشعره حدا ببعض الدارسين إلى البحث عن مسوّغات وتعليلات، فذهب إحسان عباس إلى القول إن نقد ابن المعتز لأبي تمام مرّ بمرحلتين: مرحلة تمثلها رسالة مستقلة كتبها في نقد أبي تمام[1]، ومرحلة يمثلها كتاب «طبقات الشعراء» الذي مثّل مرحلة متأخرة في حياته (عباس،1983، 118). ولا

(1) أورد المرزباني جزءًا كبيرًا من هذه الرسالة في كتابه «الموشح» ص303 وما بعدها.

15-2.indd 211 2/12/19 1:25 PM

ندري علامَ اعتمد عبّاس في حكمه هذا، فهل ثمة سياقات تاريخة وإشارات نقدية تلمح إلى ذلك؟ كما حدا التناقض نفسه ببعض النقاد الآخرين إلى التشكيك في نسبة أجزاء من رسالة ابن المعتز في مساوئ أبي تمام، من هؤلاء عبد الله المحارب، الذي يرجّح أن يكون جزء كبير من نصّ الرسالة في كتاب الموشح لمؤلف الكتاب نفسه لا لابن المعتز.

وينطلق المحارب في حكمه هذا من استشهاده بزكي مبارك في كتابه «النثر الفني»، إذ يورد مما جاء في الرسالة في «الموشح» قوله: «ولما نظرت في الكتاب الذي ألفه في اختيار الأشعار وجدته قد طوى أكثر إحسان الشعراء، وإنما سرق بعض ذلك وطوى ذكره وجعل بعضه عُدّة يرجع إليها في وقت حاجته، ورجاء أن يترك أكثر أهل المذاكرة أصول أشعارهم على وجوهها، ويقنعوا باختياره لهم، فتغبى عليهم سرقاته» (المرزباني 1343هـ، 312). يقول مبارك معلّقا على هذه الفقرة: «ففي هذه الفقرة تجنٍّ شديد على أبي تمام، وإزراء بإحسانه في تأليف مختاراته وما أحسب الخاطر الذي مرّ ببال المرزباني مرّ ببال ناقد شريف القصد» (مبارك،151:2،1975).

ولعلّ إشارة إحسان عباس في اعتقاده أن كتاب الطبقات لابن المعتز جاء متأخّرا عن باقي كتبه تؤكّد تخلّي ابن المعتز عن آرائه التي بدا فيها متحاملاً على أبي تمام، فهو في «الطبقات» يمدحه ويثني عليه كل الثناء.

بعد هذا كلّه، يمكن أن نعدّ ابن المعتز ناقدًا منصفًا، لكونه نقد المحاسن كما نقد المساوئ، وابتعد عن الأحكام العامة، وقوّم المحاسن ووزنها وعلّلها، وعرض للمساوئ ونقدها وبيّن سبب استهجانه لها (الربداوي،1967). يعزز ذلك أنه قرّظ أبا تمام وذكر كثيرًا من محاسن شعره في مواطن كثيرة، ولا سيما في قوله: «لو استقصينا ذكر أوائل قصائده الجياد التي هي عيون شعره لشغلنا قطعة من كتابنا هذا بذاك» (ابن المعتز،طبقات الشعراء،286).

موقف الصولي من أبي تمام

تعمّق النقد في عصر الصولي، وراح الناس يفهمون ويحلّلون ويُحسِنون في إطلاق الأحكام، كان ذلك بتأثير من الحضارة ورقيّ الذّوق وتفتّق القريحة العربية ونضج عقليتها (العمري، 1973) .

يقوم نقد الصولي على دراسة الشعر، وتبيين مواطن الجمال والقبح والجودة والرداءة وعقد الموازنات بين الشعراء وتعليل عيوبهم وهناتهم وعرض سرقاتهم وردّها إلى مرجعياتها الأولى (العمري، 1973). وهو ينهض بذلك متسلّحا بصفاء ذوقه وسعة علمه، فقد عُرف بسعة ثقافته وتكاملها، وكان شاعرًا وراويًا وعارفًا بالشعر والدواوين واللغة

15-2.indd 212 2/12/19 1:25 PM

والنحو والبلاغة والموسيقى والغناء والتاريخ ورواية الحديث وعلوم القرآن الكريم (حسين، 1975).

أولًا: موقفه من سرقات أبي تمام:

يعترف الصولي بكثرة اتكاء المحدثين من الشعراء على الأقدمين منهم، فيقول: «اعلم- أعزك الله- أن ألفاظ المحدثين مذ عهدُ بشار إلى وقتنا هذا كالمنتقلة إلى معان أبدع، وألفاظ أقرب، وكلام أرقّ، وإن كان السبق للأوائل بحق الاختراع والابتداء، والطبع والاكتفاء...» ومع ذلك فالصولي يكاد لا يسلّم بما نسب إلى أبي تمام من سرقات من الشعراء الذين سبقوه، فقد دافع عن سرقاته، وحاول أن يجعله فوق أن يأخذ ممن قبله، وأن يجعل إحسانه في قول الشعر وكثرة اختراعاته أمرًا يستدعي صرف هذه التُّهَمة عنه. يقول: ولو جاز أن يُصرف عن أحدٍ من الشعراء سرقة، لوجب أن يُصرف عن أبي تمام لكثرة بديعه واختراعه واتكائه على نفسه، ولكنّ حُكم النقاد للشعر، العلماء به، قد مضى بأن الشاعرين إذا تعاورا معنىً ولفظًا أو جمعاهما، أن يُجعل السّبق لأقدمهما سنًّا، وأوّلهما موتًا، وينسب الأخذ إلى المتأخّر، لأنّ الأكثر كذا يقع، وإن كانا في عصرٍ أُلحِق بأشبههما به كلامًا، فإن أشكل ذلك تركوه لهما (الصولي، 1937). وكأنّ الصولي يحتج على سنن النقاد السابقين في أنّهم اصطلحوا على هذا الأمر، وكأنه يريد أن يقول إن المعنى المطروق قد يُتناول من شاعر لاحق دون أن يكون قد اطلع على السّابق فيزيد، هذا الآخر، في إحسانه ويلبسه حلّة أبهى ورونقًا أحلى مما كان عليه.

وقد أظهر الصولي أن البحتري اتكأ كثيرًا في معانيه وألفاظه على أبي تمام، فقال: «ومن تبحّر شعر أبي تمام وجد كلّ مُحسِن بعده لائذًا به» (الصولي، 1937،76) ثم استشهد بأبيات لأبي تمام وأخرى للبحتري، منها:

قول أبي تمام:

فســـــواء إجابتي غـــيرَ داعٍ ودعائي بالقاع غيرَ مجيبِ

وقول البحتري:

وسألتَ من لا يستجيب فكنت في اســ ـتخباره كمجيب من لا يسألُ

ويتابع الصولي في اجتلاب الشواهد على أخذ البحتري من أبي تمام إلى أن يقول: «ولولا أن بعض أهل الأدب ألّف في أخذ البحتري من أبي تمام كتابًا[1]، لكنت قد سقت

(1) لعله يريد أبا الضياء بشر بن تميم الذي ألف كتابا في أخذ البحتري من ابي تمام, (الكلام هنا لمحققي كتاب «أخبار أبي تمام» للصولي, مرجع سابق, ص79).

15-2.indd 213 2/12/19 1:25 PM

كثيـرًا مثـل مـا ذكرنـا» (الصولـي، 1937،79).

ويبـدو أن إغـراق الصولـي فـي الحديـث عـن سـرقات البحتـري مـن أبـي تمـام ليـس رغبـة منـه فـي النَّيـل مـن الأوّل بقـدر مـا هـو رغبـة فـي إظهـار محاسـن الآخِـر وتفوّقـه فـي الغـوص فـي المعانـي وابتداعهـا والسـبق إليهـا. لـذا نجـده يقـول: ومـع سـرقاته هـذه فإنـه لـم يبلـغ مبلـغ أبـي تمـام (حسـين،1975). ويتابـع قائـلًا علـى البحتـري: «...وهـو مـع ذلـك يلـوذ بأبـي تمـام فـي معانيـه، فـأي دليـل علـى فضـل أبـي تمـام ورياسـته يكـون أقـوى مـن هـذا؟» (الصولـي، 1937،73).

ثانيًا: موقفه من اللفظ والمعنى عند أبي تمام:

كان الصولـي مـن أنصـار المعنـى لا اللفـظ (حسـين، 1975)، والإشـارات إلـى ذلـك غيـر قليلـة منهـا تعليلـه لتفضيـل جيـد أبـي تمـام علـى جيـد البحتـري بنفـي الاختـلال عـن معانـي أبـي تمـام، مغتفـرًا لـه الاختـلال القليـل فـي بعـض ألفاظـه (الصولـي، 1937). ومـن تلـك الإشـارات أيضًـا تفضيلـه الشـاعر الـذي يكـدّ طبعـه ويُعمِـل فكـره فـي اسـتنباط المعانـي (نفسـه، 1937). وقولـه: «وليـس أحـد مـن الشـعراء- أعـزّك الله- يعمـل المعانـي ويخترعهـا ويتّكـئ علـى نفسـه فيهـا أكثـر مـن أبـي تمـام؛ ومتـى أخـذ معنـى زاد عليـه، ووشّـحه ببديعـه، وتمّـم معنـاه، فـكان أحـقّ بـه» (نفسـه، 53).

وقـد عمـل الصّولـي جاهـدًا علـى إثبـات تفـوّق أبـي تمـام فـي المعانـي، فهـو يفضّـل المعانـي المخترَعـة التـي يتّكـئ فيهـا الشـاعر علـى نفسـه، وهـذا مـا وجـده فـي أبـي تمـام إذ يقـول عليـه: إنـه «يتعـب نفسـه ويكـدّ طبعـه ويطيـل فكـره ويعمـل المعانـي ويسـتنبطها» (نفسـه، 118).

مـع هـذا فـإن الصولـي يعتـرف ضمنًـا بوحـدة اللفـظ والمعنـى وتعـذّر الفصـل بينهمـا، لتصبـح الجَـودة، عنـده، فـي ائتـلاف اللفـظ والمعنـى، لا فـي أحدهمـا دون الآخـر. يتّضـح هـذا فـي غيـر قـول لـه منهـا قولـه: إن البحتـري احتـذى كثيـرًا مـن معانـي أبـي تمـام «فجذبتـه المعانـي واضطرتـه إلـى أن حكـى لفظـه فـي هـذا، فصـار يُشـبه لفـظ أبـي تمـام (نفسـه، 74)» وكذلـك قولـه: «وأبـو تمـام لا يسـقط معنـاه البتـة، وإنمـا يختـل فـي الوقـت لفظـه، فـإذا اسـتوى لـه اللفـظ فهـو الجيـد مـن شـعره النـادر الـذي لا يتعلـق بـه أحـد» (حسـين، 1975، 7).

ثالثًا: فصله بين الشعر والدين:

مـن القضايـا الكُبَـر التـي تناولهـا الصولـي فـي سـياق دفاعـه عـن أبـي تمـام قضيـة الفصـل بيـن الشـعر والديـن. فقـد ادُّعـي الكفـر علـى أبـي تمـام[1]، وجُعـل هـذا الادعـاء «سـببًا للطعـن علـى

(1) ملخص الحكاية أن قوما دخلوا على أبي تمام وهو يعمل شعرًا, وبين يديه شعر أبي نواس ومسلم بن الوليد, فقال

15-2.indd 214 2/12/19 1:25 PM

شعرِه وتقبيح حسنه» (الصولي، 1937،172) فردّ عنه هذه التُهَمة، متوسلا بـ «المقايسة» مبدأً كبيرا في هذا الشأن (بكار، 2007) ، وبين أن لا علاقة للمعتقد بالشعر فقال: «وما ظننت أن كفرًا يُنقص من شعر، ولا أن إيمانًا يزيد فيه» (الصولي، 1937، 172).

وهذه المسألة ليست من ابتداع الصّولي، ولكنها مسألة لها أصولها في تاريخ النقد العربي (بكار،2007) عند ابن أبي عتيق، مثلاً، إذ قال: «لشِعرِ عمر بن أبي ربيعة نوطة في القلب، وعلوق في النفس، ودرك للحاجة ليست لشعر، وما عُصِي الله جلّ وعزّ بشعر أكثرَ ممّا عُصي بشعر ابن أبي ربيعة» (الأصفهاني،1986،1: 117). ومع ذلك فقد طرحها الصّولي طرحًا مقنعًا وقدّم لهذه الفكرة ما يؤازرها ويقوّيها، فتعلل بأربعة الشعراء الذين أجمع الناس على فضلهم وعلوّ شأنهم في الشّعر، أقصد امْرأ القيس والنابغةَ وزهيرًا والأعشى فقال: «ما ضرّ هؤلاء الأربعة... كفرهم في شعرهم، وإنما ضرّهم في أنفسهم. ولا رأينا جريرًا والفرزدق يتقدّمان الأخطل عند من يقدّمهما عليه بإيمانهما وكفره، وإنما تقدّمهما بالشعر» (الصولي،1937،174).

رابعًا: تعصّب الصّولي لأبي تمّام:

كان الصولي متعصِّبا لأبي تمام، وعَدّ مذهبه في قول الشعر أجودَ المذاهب وأفضلَها، منبِّها على سبقه وطول باعه فيه، فقال في رسالته إلى مزاحم مقرِّعا من عاب على أبي تمام: «ومنزلة عائب أبي تمام- وهو رأس في الشعر- مبتدئ لمذهب سلكه كل محسن بعده، فلم يبلغه فيه، حتى قيل: مذهب الطائي، وكل حاذق بعده ينسب إليه ويقفّي أثره- منزلة حقيرة يصان عن ذكرها الذم، ويرتفع عنها الوهْد» (الصولي،1937،37).

وقد أفرد الصّولي فصلاً أسماه «في ما روي من معائب أبي تمّام» (نفسه،244) ، ورغم أن العنوان يشي أنّ ثمّة عيوبًا سيذكرها الصّولي، إلا أنّه يشي أيضًا بنوع من الإنكار لهذه العيوب، فهو يقول «في ما روي» وكأنه لا يعترف بها ولكن اضطر إلى ذكرها- كما يبدو- تعميقًا لفكرة الإنصاف وعدم التعصب لأبي تمام. والذي يؤكّد ذلك هو أن هذه العيوب ليست ذات شأن عظيم، وتركها الصولي دون أن يعلّق عليها.

ولم يقتصر امتداح الصولي على شعر أبي تمام، بل تعداه إلى شخصه وأسرته وأهله، فافرد لذلك بابًا في كتابه «أخبار أبي تمام» أسماه «صفة أبي تمام وأخبار أهله» (نفسه، 259).

ومن قبيل تعصبه لأبي تمام ما نجده في حديثه في سياق الموازنة بينه وبين البحتري،

أبو تمام: هما اللات والعزى وأنا أعبدهما من دون الله منذ ثلاثين سنة. والتمس الصولي العذر لأبي تمام في قوله هذا وقال: إنه أراد أنهما شغلاه عن عبادة الله عز وجل. (انظر: أخبار أبي تمام, ص713).

15-2.indd 215 2/12/19 1:25 PM

فقد بيّن الصّولي فضل أبي تمام على البحتري، وأورد روايات يستشهد بها مسندة إلى عدد من أئمة اللغة والأدب، تاركا هذه الروايات دون تعليق ليوهم القارئ بإنصافه وعدم تعصّبه إلى أبي تمام ضد البحتري (حسين،1975). ومثل هذا الإيهام نجده في غير موضع ولا سيما عندما يمدح البحتري ويضعه في المرتبة الثانية بعد أبي تمام. يقول: «ولا أعرف أحدًا بعد أبي تمام أشعرَ من البحتري، ولا أغضَّ كلامًا، ولا أحسنَ ديباجًا، ولا أتمَّ طبعًا، وهو مستوي الشعر، حلو الألفاظ، ومقبول الكلام» (الصولي،72-73،1937).

ويستشهد الصولي برأي للبحتري نفسه يعترف فيه بفضل أبي تمام عليه واحتذائه له. يقول الصولي: حدثني عبد الله بن الحسين قال، «قلت للبحتري: إنك احتذيت في شعرك- يعني الذي ذكرناه- أبا تمام، وعملت كما عمل من المعنى، وقد عاب هذا عليك قوم، فقال لي: أيعاب عليّ أن أتبع أبا تمام، وما عملت بيتًا قطّ حتى أُخطِر شعرَه ببالي؟» (الصولي،1937، 70).

هكذا بدا الصولي إزاء أبي تمام شعرِه وشخصِه، نزَّاعا إلى مذهبه في الشعر ومتعصِّبا أحيانًا، لكن تعصّبه هذا لم يكن تعصُّبا أعمى- كما بدا لبعض الدارسين والنقاد- بل كان في كثير من الأحيان مسوَّغا له، فقد اجتهد الرجل في تقديم الحجج والبراهين متوسِّلا بالمقايسة حينًا وبالشّرح والتفسير والقصديّة حينًا آخر، وأظنّه كان مُقنِعًا في ذلك إلى حدّ بعيد.

خامسًا: ردّه على خصوم أبي تمّام:

يتلخّص منهج الصولي في ردّه على من عاب على أبي تمام في ما يأتي (حسين،1975):

أ. القياس على أخطاء الشعراء من القدماء والمحدثين.

ب. الرد على المعائب بالشرح والتوضيح والنقد والتحليل.

ج. الدفاع عن الأخطاء بكونها لا تقلل من شأن الشاعر.

ففي شأن القياس على أخطاء غيره من القدماء كان يأتي الصولي بالبيت الذي عيب على أبي تمام ويقيسه بآخر لشاعر فحل من القدماء الذين شُهد لهم بالإحسان. وقياس الخطأ بالخطأ، كما هو معلوم، ليس بالأمر العلمي ولا بالمسوغ الذي يسوغ للآخرين أخطاءهم، ولكن الصولي أورد ذلك ليدلل على أن مسألة العيب على أبي تمام لم تكن إلا بدافع التعصب والحسد، وإلا لمَ لم يعيبوا على الأقدمين ما عدّوه خطأ وعيبا في حق أبي تمام؟

□□□□□□ □□□□□□□□□ 15-2.indd 216 2/12/19 1:25 PM

ومثال ما أورده في ذلك الشأن ردّه على من عاب على أبي تمام ذكر التين والعنب في قوله:

تسعون ألفاً كآساد الشرى[1] نضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب

فدافع عن هذا البيت بأنه إن كان ذكر التين والعنب مما لا يرد في الشعر فقد ورد في شعر ابن قيس الرقيات الذي قال (الصولي،1937، 30):

سقيا لِحُلوان ذي الكروم وما صنِّف من تينه ومن عنبهْ

أما في شأن الرد على المعائب بالشرح والنقد والتحليل، فكان الصولي ينطلق من مبدأ أن هؤلاء الذين يعيبون على أبي تمام شعره لم يفهموه، وأن عيبهم إياه إنّما سببه الغموض الذي يكتنف بعض تلك الأبيات، فراح يشرح ويوضح حتى يزيل اللبس ويبين المقصد. لذا نجده يقول: «أما ما حُكي عن بعض العلماء في اجتناب شعره وعيبه،... لأن أشعار الأوائل قد ذُلّلت لهم، وكثرت لها روايتهم، ووجدوا أئمّة قد ماشُوها[2] لهم، وراضوا معانيها، فهم يقرءونها [كذا] سالكين سبيل غيرهم في تفاسيرها، واستجادة جيّدها، وعيب رديئها» (الصولي،1937، 14). فالصولي، كما يبدو، يعوّل كثيرًا على قضية الفهم والقصدية. ومن الأمثلة على ذلك ما يورده في الرد على من عاب على أبي تمام قوله:

لا تسقني ماءَ الملامِ فإنّني صبٌّ قد استعذبتُ ماءَ بكائي

يقول في شرح البيت وتوضيحه: «وهم يقولون: كلامٌ كثيرُ الماء، وما أكثرَ ماءَ شعرِ الأخطل!... ويقولون: ماءُ الصّبابة، وماءُ الهوى، يريدون الدّمع» (الصولي،1937، 33 - 34).

أمّا الأسلوب الأخير الذي استخدمه الصّولي في الرد على من عاب شعر أبي تمام فبعدّه أخطاء أبي تمام أمرًا لا يقلل من شأنه. فالصولي يعترف بوقوع أبي تمام في بعض الأخطاء والهنات، مثله، في ذلك، مثل غيره من الشعراء، لذلك نجده يقول: «ولو وَهِم أبو تمام في بعض شعره، أو قصّر في شيء منه، لما كان من ذلك مستحِقًّا أن يبطل إحسانه» (نفسه ، 32).

إن ديدن الصولي في كثير من ردّه على الخصوم هو جعل العيب فيهم لا في الشعر، فخصوم أبي تمام إما أنهم لم يفهموا شعره، وإما أنهم سعوا إلى نَيْل الشهرة من خلال الطّعن على

(1) الشرى: موضع تنسب إليه الأسد؛ قال بعضهم : هو موضع بعينه تأوي إليه الأسد. (انظر: لسان العرب, مادة «شري»).

(2) مأش المطرُ الأرض أي سحاها. والميش هو حلب نصف ما في ضرع الناقة من لبن. (انظر لسان العرب, مادتي: «مأش» و«ميش»).

15-2.indd 217 2/12/19 1:25 PM

رجل مثل أبي تمام، لذا نجده يقول على هؤلاء: «إذ كان أحدهم ساقطًا خاملًا ألّف في الطعن عليه كتبًا واستغوى عليه قومًا، ليُعرف بخلاف الناس، وليُجرى له ذكر في النقص إذ لم يقع له حظّ في الزيادة، ومكسب بالخطأ إذ حُرِمَه من جهة الصواب» (نفسه، 28).

ومهما يكن من أمر فإن الصولي لا يرى بأسا في مآخذ بعض النقاد والخصوم على أبي تمام، ومجمل رأيه فيه: «أن النقد لا يكون بإبراز بعض العيوب والتشهير بالشاعر من أجلها وإغفال ما له من حسنات كثيرة إزاءها؛ فكيف إذا كانت تلك العيوب مجتلبة، ونسبة التقصير إلى الشاعر مفتعلة» (عباس،1983، 150).

نتيجة:

من خلال ما تقدم، يمكن أن نخرج بالنتائج الآتية:

1. شكّل أبو تمام نقطة تحول في مسيرة الأدب العربي أفضت إلى تثوير الحركة النقدية في القرنين الثالث والرابع الهجريين. فألّفت مؤلفات كثيرة في شعر الرجل تباينت وجهاتها تأييدا ومعارضة.

2. يُعدّ ابن المعتز من أوائل النقاد الذين تنبّهوا إلى شعر أبي تمّام وما طرأ على هذا الشعر من تحوّل، فكانت مؤلفاته في هذا الشأن منطلقًا لغيره من النقاد الذين خاضوا هذا الغمار.

3. بدت آراء ابن المعتز في شعر أبي تمام متضاربة، فبدا في رسالته «في محاسن شعر أبي تمام ومساوئه» متحاملًا على الرجل. ولعل هذا التحامل بدا لنا لأنه لم يتسنَّ لنا الاطّلاع على الجزء الآخر من الرسالة، الذي يتحدّث فيه عن محاسن الشاعر، فاقتصار اطّلاعنا على المساوئ جعلنا نشعر بأن ابن المعتز غمط حق أبي تمام وطمس محاسنه وإبداعاته وقلّل من شأنه. لكن الصحيح أن ابن المعتز كان في رسالته يعلّل ويناقش- بقدر ما يسمح به فضاء النقد آنذاك- وابتعد عن إطلاق الأحكام العامة، وغير المعلّلة إلا في القليل منها حينما كان يحتكم إلى الذوق، حيث لا معيار يمكن التوسل به إلا الذوق، وكان ذوقه في جلّ أحكامه سليمًا رغم أنه غير معلل، لأنه- كما يقال- هناك من الأشياء أشياء تحيط بها المعرفة ولا تؤديها الصفة.

4. جاءت محاولات النقاد والدارسين في تعليل هذا التضارب في آراء ابن المعتز غير مقنعة، وهي مسألة تحتاج إلى مزيد بحث وتدقيق. فمن قال إن نقد ابن المعتز لأبي تمام مرّ بمرحلتين لم يقدّم لنا الدليل على ذلك، ولم يخبرنا علامَ

15-2.indd 218 2/12/19 1:25 PM

اعتمد في حكمه هذا؟ هل مجرّد التباين في الأحكام يعني أن نقده مرّ بمرحلتين؟ ثم ما الذي جعل ابن المعتز يتحول من لهجة نقدية قاسية ونهج تعليلي في رسالته إلى أحكام عامة ولهجة مجامِلة بعد ذلك؟!

أمّا من شكك في نسبة جزء من الرسالة لابن المعتز وقال إنها لصاحب الموشح معتمدًا في ذلك على تغير اللهجة، فقد يكون مصيبًا، لكن اللافت أن اللهجة كلها في الرسالة مختلفة عنها في غيرها مما تناول الحديث فيه عن أبي تمام.

5. عاب ابن المعتز على أبي تمام تكلّفه وبعد استعاراته وسرقاته... وبدا في جلّ ذلك محقًّا- على الأقل في بعض الأمثلة التي أوردها- لكنه لم يكن محقًّا في شأن السرقة، مثلاً، وفي شأن بعض الاستعارات التي عدّها بعيدة.

6. مجمل رأي ابن المعتز بأبي تمام أقرب إلى الإنصاف منه إلى التعصب عليه- كما يتوهم بعض الدارسين- فقد بذل ابن المعتز جهدًا كبيرًا جدًا في سبيل إنصاف الرجل، فهو قد تحدث عن مساوئه ومحاسنه، كما أنه قال إن أبا تمّام قد بلغ غايات الإساءة والإحسان، وإذا كانت نماذج الإحسان التي أوردها ابن المعتز في الرسالة لم تصل إلينا، فهذا ليس ذنبه، ثم إنه امتدحه وأثنى عليه في غير موضع من مؤلفاته الأخرى.

7. أما الصّولي، فقد اعتمد في دراسته شعر أبي تمام على المقايسة حينًا، وعلى الشرح والتفسير حينًا آخر. ووظّف كلَّ ضروب المعرفة والعلوم التي حازها- وهي متنوّعة ومتشعّبة- للدفاع عن صاحبه والانتصار له ممّن عابوا عليه شعره. وحاول، دائمًا، أن يأتي بالحجج والبرهين والأدلّة في ردّ التّهمة عنه وقد حقق ذلك باقتدار.

8. وقف الصولي موقفًا دفاعيًّا صِرْفًا عن أبي تمام، وانبرى بكل طاقاته المعرفية والذوقية والعلمية للدفاع عنه وردّ الطاعنين عليه وعلى شعره.

9. يرى الصولي أنّ التعصب والحسد، والنزوع إلى القديم دون المحدث، وحب الظهور، وعدم فهم أشعار أبي تمام كانت من جملة الأسباب التي حدت بكثيرين من عائبي شعر أبي تمام للاجتهاد في تقرّي مساوئه وهناته، ولم يكن عيبهم هذا لضعفٍ في شعر الرجل أو فساد في ذوقه.

10. يُعدّ الصّوليّ من أنصار الحديث، لكن نصرته للحديث لم تدفعه إلى تعصّبه على القديم. بهذا يكون الصولي قد شكّل موقفًا موضوعيًّا ومتوازنًا، فهو لا يعيب القديم لقدمه ولا ينتصر للمحدث لحداثته.

□□□□□□ □□□□□□□□□ 15-2.indd 219 2/12/19 1:25 PM

قائمة المصادر والمراجع:

1. إبراهيم، طه أحمد، (د.ت) تاريخ النقد الأدبي عند العرب من العصر الجاهلي إلى القرن الرابع الهجري، د.ط، بيروت ، دار الحكمة.
2. أدونيس، علي أحمد سعيد، (1983) زمن الشعر، ط3 ، بيروت، دار العودة.
3. الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين، (1986) كتاب الأغاني، تحقيق: سمير جابر، ط2، بيروت، دار الفكر.
4. الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر يحيى الآمدي البصري، (د.ت) الموازنة بين أبي تمام حبيب بن أوس الطائي وأبي عبادة الوليد بن عبيد البحتري الطائي، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد،(د.ط) بيروت،المكتبة العلمية.
5. بكار، يوسف، (2007) حفريات من تراثنا النقدي، ط.1، بيروت، دار المنهاهل للطباعة والنشر والتوزيع.
6. حسين، صبحي ناصر، (1975) أبو بكر الصولي ناقدا، ط.1،بغداد، دار الجاحظ للطباعة والنشر.
7. الربداوي، محمود، (1967) الحركة النقدية حول مذهب أبي تمام- تاريخها وتطورها وأثرها في النقد العربي، ط.1، دمشق، دار الفكر للطباعة والنشر.
8. ابن رشيق القيرواني، (1994) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: د. محمد قرقزان، ط2، بيروت، دار المعرفة.
9. زكي، أحمد كمال، (د.ت) ابن المعتز العباسي، سلسلة أعلام العرب، ط.1، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة.
10. الصولي، أبو بكر محمد بن يحيى، (1937) أخبار ابي تمام، تحقيق: خليل محمود عساكر؛ محمد عبده عزام؛ ط.1، نظير الإسلام الهندي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر.
11. عباس، إحسان، (1983) تاريخ النقد الأدبي عند العرب- نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، ط4، بيروت، دار الثقافة.
12. العمري، أحمد جمال، (1973) أبو بكر الصولي- العالم الأديب النديم، ط.1، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
13. كساب، نعيم (طوني)، (1995)، ابن المعتز- شعره في ضوء عصره وحياته وآرائه النقدية، ط.1، بيروت، دار العلم للملايين.
14. مبارك، زكي، (1975)، النثر الفني في القرن الرابع، ط.1، بيروت، دار الجيل.
15. المحارب، عبد الله بن حمد، (1992) أبو تمام بين ناقديه قديما وحديثا- دراسة نقدية لمواقف الخصوم والأنصار، ط.1، القاهرة، مكتبة الخانجي.
16. المرزباني، أبو عبيد الله محمد بن عمران، (1343هـ، 1924م) الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، ط.1، القاهرة، جمعية نشر الكتب العربية.
17. المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، (1991) ، شرح ديوان الحماسة، تحقيق: أحمد أمين؛ وعبد السلام هارون، ط.1، بيروت، دار الجيل.
18. ابن المعتز، عبد الله، (د.ت) طبقات الشعراء، طبقات الشعراء المحدثين، تحقيق عبد الستار فراج، ط.1، القاهرة، دار المعارف.

□□□□□□ □□□□□□□□□ 15-2.indd 220 2/12/19 1:25 PM

19. ابن المعتز، عبد الله، (1979)، كتاب البديع، تحقيق: إغناطيوس كراتشقوفسكي، ط.1، بغداد، مكتبة المثنى.

20. ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، (1988)، لسان العرب المحيط، تحقيق يوسف خياط، ط.1، بيروت، دار الجيل، دار لسان العرب.

Translated Romanized Arabic References: **ترجمة مصادر ومراجع اللغة العربية:**

1. Ibraheem, Taha Ahmed, (no date). History of Literary Criticism among Arabs from the Pre-Islamic Period to the 4th Century AH, Beirut, Dar al-Hikma.

2. Adonis, Ali Ahmed Said. (1983). The Time of Poetry, (3rd ed.), Beirut, Dar Al-Awda.

3. Al-Asfahani, Abu al-Faraj Ali bin al-Hussein. (1986). The Book of Songs, Realized by Samir Jaber, (2nd ed.), Beirut, Dar al-Fikr.

4. Al-Amadi, Abu al-Qasim al-Hasan bin Beshr Yahya al-Amidi al-Basri. (no date). Comparison between Abi Tammam Habib bin Aws al-Tai and Abi Abadeh al-Waleed bin Obaid al-Bahtari al-Ta'i, realized by Muhammad Mohieddin Abdul Hamid, Beirut: Dar Al-Maktaba Alilmiya.

5. Bakkar, Youssef. (2007). Excavations in our Critical Heritage, (1st ed.). Beirut: Dar Al-Manhahel for printing, publishing and distribution.

6. Hussain, Subhi Nasser. (1975). Abu Bakr Al-Suli as a Critic, (1st ed.), Baghdad: Dar Al-Jahidh for Printing and Publishing.

7. Al-Ridawi, Mahmoud. (1967). The Critical Movement on the Doctrine of Abi Tammam - Its History, Development and Impact On Arab Criticism, (1st ed.), Damascus: Dar al-Fikr for Printing and Publishing.

8. Al-Qayrawani, Ibn Rashiq. (1994). The Reliable Source on the Beauties of Poetry, its Norms and its Criticism, realized by Dr. Mohammed Qarqazan, (2nd ed.), Beirut: Dar al-Maarifah.

9. Zaki, Ahmed Kamal. (no date). Ibn al-Mu'taz al-Abbasi, The Arab Celebrities Series, (1st ed.), Cairo: Egyptian General Establishment.

10. Al-Suli, Abu Bakr Muhammad Bin Yahya. (1937). Abi Tammam News, realized by Khalil Mahmoud Assaker; Mohammed Abdo Azzam; (1st ed.), The Counterpart of Indian Islam, Cairo, Press of the Committee of authoring, translation and publishing.

11. Abbas, Ihsan. (1983). History of Literary Criticism among Arabs: Poetry Criticism from the 2nd Century to the Eighth Century AH, (4th ed.), Beirut: Dar Al-Thaqafa.

□□□□□□ □□□□□□□□□ 15-2.indd 221 2/12/19 1:25 PM

12. Al-Omari, Ahmed Jamal. (1973). Abu Bakr Al-Suli: The Scholar, the Literary Man and the Companion, (1st ed.) Cairo: the Egyptian General Book Organization.

13. Kassab, Naeem (Toni). (1995), Ibn Al-Mu'taz: his Poetry in the Light of his Era, his Life and his Critical Views, (1st ed.), Beirut: Dra Al'Ilm Lilmalayeen.

14. Mubarak, Zaki. (1975), Prose in the 4th Century, (1st ed.), Beirut: Dar al-Jil.

15. Al-Muharib, Abdullah bin Hamad. (1992). Abu Tammam: his Old and Modern Critics: a Critical Study of the Positions of Opponents and Supporters, (1st ed.), Cairo: Maktabat Al- Khansi.

16. Al-Marzabani, Abu Obeid Allah Muhammad ibn Omran. (1343 AH, 1924 AD). The Terza Rima in the Reproaches of Scholars for Poets, (1st ed.), Cairo: Association of the Publication of Arabic Books.

17. Al-Marzouqi, Abu Ali Ahmed bin Mohammed bin Hassan. (1991). Explanation of the Collection of Al-Hamasa, realized by Ahmed Amin; and Abdul Salam Harun, (1st ed.), Beirut: Dar Al-Jil.

18. Ibn al-Mu'taz, Abdallah. (No date). Classes of Poets, Classes of Modern Poets, realized by Abdul Sattar Faraj, (1st ed.), Cairo: Dar Al Ma'arif.

19. Ibn al-Mu'taz, Abdallah. (1979). The Book of Eloquence, realized by Ignatius Kratschowski, (1st ed.), Baghdad: Muthanna Library.

20. Ibn Mandhoor, Mohamed Ben Makram Al-Ifiqi Al-Masri. (1988). The Comprehensive Tongue of the Arabs, realized by Yusuf Khayat, (1st ed.), Beirut: Dar Al-Jil

□□□□□□ □□□□□□□□□ 15-2.indd 222 2/12/19 1:25 PM

Abu Tammam Between Ibn Al Moataz and Abu Bakr Al-Suli

Omar Hasan Alameri

Kuwait International Law School

City of Kuwait - Kuwait

Mohammad Issa Al-Hourani

College of Education Humanities and Social Sciences - Al Ain University of Science and Technology

Abu Dhabi - United Arab Emirates

Abstract:

This research aims at introducing Abu Tammam as viewed by two main prominent critics: Ibn Al-Mu'taz and Abu Bakr Al-Souli. Abu Tammam is considered a landmark in ancient Arabic literature which reached its peak during the third and fourth centuries AH. He greatly contributed to the advancement and activation of critical approaches through reexamination and innovation of the standardized form of Arabic poetry that used to be a reliable criterion for accepting or rejecting poetry as good or bad.

Keywords: Abu Tammam, His Doctrine, Ibn AlMutaz, Abu Bakr Bin Yahya Al-Souli.

□□□□□□ □□□□□□□□□ 15-2.indd 223 2/12/19 1:25 PM